سلسلة مؤلفات الشيخ خالد بن إبراهيم الفليج (٢)

شرح كتاب القواعد الأربع

تأليف
خالد بن إبراهيم الفليج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين أما بعد.

فلقد يسَّر الله لنا بفضله ومنَّته مجالس علمية تم التعليق فيها علىٰ جملة من متون الاعتقاد؛ كسلم الوصول، والنواقض العشرة، والأصول الثلاثة، وكتاب التوحيد، ولمعة الاعتقاد، ورغب بعض الفضلاء بتفريغها وإخراجها، وقمنا بعد ذلك علىٰ تنقيحها وإعادة ترتيبها؛ فليس ما هُيِّئ للكتابة وغرض التأليف، كما أُلقي مرتجلًا من غير سبك وحسن تصنيف، ومن ذلك هذه الرسالة المباركة والموسومة بـ «القواعد الأربع» للإمام المجدد: محمد بن عبدالوهاب، وقد راعينا في ذلك الاختصار والمعاصرة، وابتعدنا عن الحشو الممل والاختصار المخل؛ فخير العلوم ما ضُبط أصله، واستذكر فرعه، وقاد لما يُرضي الله عز وجل، والله نسأله حسن القصد والقبول . .

قال الإمام العابد العالم المجاهد، شيخ الإسلام والمسلمين، مجدِّد الدعوة والدين، الإمام محمّد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة-:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

● القواعد الأربع:

أسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أُعطي شكر، وإذا أُبتلي صبر، وإذا أَذْنَبَ استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.

ابتدأ الشيخ رحمه الله تعالىٰ كتابه بالبسملة، جريًا علىٰ عادة أهل العلم؛ حيث يبتدئون كتبهم بالبسملة لأمور:-

الأمر الأول: اقتداءً بكتاب الله جل جلاله.

الأمر الثاني: اقتداءً برسولنا ﷺ في مكاتباته إلىٰ هرقل وإلىٰ كسرىٰ وغيرهم.

الأمر الثالث: امتثالًا لما وَرَدَ في حديث أبي هريرة الذي رواه الخطيب: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله فهو أجذم**»[(١)]، وهو حديث منكر، تفرد

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٦٩) (١٢١٠)، ومن طريقه السبكي في طبقات الشافعية (١/ ١٢) من طريق مبشر بن إسماعيل، عن الأوزاعي به، ولم يذكر قرة فيه وهو بهذا قد خالف الثقات الذين أثبتوا قرة بن عبد الرحمن، فتكون رواية مبشر شاذة لمخالفته لهم.
وهو معلول أيضًا بـ: أحمد بن محمد بن عمران أبو الحسن بن الجندي.
قال الحافظ في لسان الميزان (١/ ٦٣٩) (٧٨٩)، قال الْأزهري: ليس بشيءٍ، حضرته وهو يُقْرَأ عَلَيْهِ كتاب «ديوان الْأنواع» الَّذِي جَمَعَهُ، فَقَالَ لي ابن الْأبنوسي: لَيْسَ هذا سماعه، وإنما رأىٰ علىٰ نسخة عَلَىٰ ترجمتها اسم وافق اسمه فادَّعَىٰ ذَلِكَ. قال الخطيب: كان يضعف في روايته ويطعن عليه في مذهبه. =

بذكر البسملة مبشر بن إسماعيل عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وعامة أصحاب الزهري يروونه عن الزهري عن النبي ﷺ بلفظ «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم**»(١) فالأحاديث الواردة فيه ضعيفة ولا تصح، وأحسن ما يقال فيها أنها مراسيل.

= وقال العتيقي: كان يُرمىٰ بالتشيع.
وأورد ابن الجوزي في الموضوعات في فضل علي حديثًا بسند رجاله ثقات إلا الجندي فقال: هذا موضوع، وَلا يتعدى الجندي.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤١)، وابن ماجه (١٨٩٤) من طريق قُرَّةَ، عن الزهريِّ، عن أبي سلمة وحسنه ابن الصلاح.
قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ يُونُسُ، وَعَقِيلٌ، وَشُعَيْبٌ، وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا.
وأخرجه النسائي (١٠٢٥٧) من طريق عُقيل، و(١٠٢٥٨) من طريق الحسن بن عمر، كلاهما عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلًا.
ورجح الدارقطني في «العلل» (٨/ ٣٠): هذه الرواية المرسلة علىٰ الرواية الموصولة، قلنا: ومراسيل الزهري لا يعتد بها عند جمهور أهل العلم.
وأخرجه كذلك الخليلي (٣/ ٩٦٦)، من طريق خارجة بن مصعب، عن الأوزاعي، عن الزهري، به -ولم يذكر فيه قرة بن عبد الرحمن، وخارجة متروك، كما في التقريب، وقال الذهبي: واهٍ، قال الحافظ في تهذيب التهذيب ٣/ ٧٨.
ترك ابن المبارك حديثه، وقال: رأيت منه سهولة في أشياء فلم آمن أن يكون أخذه للحديث علىٰ ذلك، وقال يعقوب: وهو ضعيف الحديث عند جميع أصحابنا، وقال ابن حبان: كان يدلس عن غياث بن إبراهيم وغيره، ويروىٰ ما يسمع منهم مما وضعوه علىٰ الثقات عن الثقات الذين رآهم، فمن هنا وقع في حديثه الموضوعات عن الأثبات، لا يجوز الاحتجاج بخبره، وذكره ابن الجارود والعقيلي وسعيد بن السكن وأبو زرعة الدمشقي وأبو العرب الصقلي وغيرهم في «الضعفاء». اهـ.

الأمر الرابع: الاستعانة بالله، فكأنه قال: أكتب هذه الرسالة مستعينًا بالله ﷻ.

الأمر الخامس: جريًا علىٰ عادة العلماء في تصانيفهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أسأل الله الكريم .....**».

دعاء للسامع وللقارئ، وابتداؤه بالدعاء فيه فوائد: -

الفائدة الأولىٰ: أن يعلم القارئ لهذا الكتاب أن مؤلفه ناصحٌ له، وأنه يريد الخير به.

الفائدة الثانية: العلماء هم ورثة الأنبياء، وقد قال تعالىٰ في نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومن مقتضىٰ هذه الرحمة الدعاء للمستفيد وإرادة الرحمة به، فهذا الدين رحمة من رب العالمين.

الفائدة الثالثة: جريًا علىٰ عادة العلماء؛ فتجد كثيرًا من أهل العلم في مصنفاتهم يبتدئون بالدعاء للقارئ وللسائل، وذلك أدعىٰ في قبول نصيحته، وفي قبول كلامه.

ولا شكَّ أن هذا من جوامع الدعاء، فإن الله إذا تولىٰ العبد في دنياه وفي آخرته حصلت له النجاة المطلقة والأمن المطلق، ولا يُخذل العبد إلا إذا تركه الله جل جلاله.

فكل واحد له من ولاية الله جل جلاله نصيب بقدر إيمانه وتقواه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فمن مقتضىٰ هذه الولاية: أن يهديك إلىٰ صراطه المستقيم، وأن يجعلك من الناجين الآمنين في عرصات القيامة.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأن يجعلك مباركًا أينما كنت**»

مبارك: اسم مفعول من بارك، وأصل البركة النماء والزيادة.

وفي الاصطلاح: طلب الخير الكثير وطلب ثباته ولزومه.

وتعريفه عند المفسرين: النفاع للناس ومعلم الخير والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

وهذا من متممات الدعاء، فكثير من الناس قد يكون صالحًا في نفسه، نافعًا لذاته، لكنه غير مبارك.

فالمبارك: من كان صالحًا في نفسه، مصلحًا لغيره، ينتفع الناس به، فيكون كالشمس حيثما طلعت نفعت.

وأعظم الناس بركةً نبينا ﷺ، فالأمة تتقلب في بركة دعوته إلىٰ قيام الساعة.

ومن عظيم البركة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأعظم الأمر بالمعروف: الأمر بتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ وإفراده بالعبادة، وأعظم النهي: النهي عن الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ وعبادة غيره معه.

ثم ثلّث المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدعاء يشمل السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة فقال:

«**وأن يجعلك ممن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة**».

أما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إذا أُعطي شكر**».

تعريف الشكر لغةً: مصدر شَكَرَ، يَشْكُرُ، وهو عرفان الإحسان ونشره.

تعريف الشُّكْرِ اصطلاحًا: ظهور أثر نعمة الله جل جلاله علىٰ لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلىٰ قلبه شهودًا ومحبةً، وعلىٰ جوارحه انقيادًا وطاعةً، قاله ابن القيم(١).

وقيل: هو الثناء علىٰ المنعم بما أولاك من معروف.

الشكر قائم علىٰ ثلاثة أركان:-

الركن الأول: أن يعتقد بقلبه أن المنعم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

الركن الثاني: أن يثني علىٰ الله بهذه النعمة: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

الركن الثالث: أن يعمل بهذه النعم في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا ابتلي صبر».

الصبر: لغةً: الصبر نقيض الجزع، وأصله الحبس.

واصطلاحًا: هو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها علىٰ فرائضه، وحبسها عن السخط والشكاية لأقداره.

ولا بدَّ للعبد من الصبر؛ لأن العبد لا ينفك عن الابتلاء، ولا يوجد

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٤).

مخلوق إلا وهو مبتلىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، و﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأنواع الصبر ثلاثة:

الأول: الصبر علىٰ الطاعات بإتيانها.

الثاني: الصبر عن المحرمات باجتنابها.

الثالث: الصبر علىٰ الأقدارِ غير المواتية بالتسليم التام وترك التسخُّط والجزع.

وأعظم الصبر أن يكون من أجل الله تعالىٰ، وأن يعتقد أن الذي وفَّقه للصبر هو الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

قال رحمه الله: «**وإذا أذنب استغفر**».

الذنب: أصله الأخذ بذنب الشيء، وهو كل فعل يستوخم عقباه.

والاستغفار: طلب المغفرة من الله بالقول والفعل.

والعبد واقع في الذنب لا محالة، كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس، قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب علىٰ ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنىٰ وتشتهي، والفَرْج يصدق ذلك أو يكذبه**»(١).

---

(١) أخرجه البُخَارِيّ في الاستئذان باب زنا الجوارح دون الفرج (٥/ ٢٣٠٤) (٥٥٨٩)، ومسلم في كتاب القدر: باب قدر علىٰ ابن آدم حظه من الزنا وغيره (٤/ ٢٠٤٦) (٢٦٥٧).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(١) وفي إسناده ضعف، لكن معناه صحيح.

فلا بدَّ أن يقع العبد في المعصية لا محالة، وتمام السعادة أن يتبع الذنب بالتوبة والاستغفار.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(٢)، وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٣).

والناس يفترقون في هذا المقام افتراقًا بيِّنًا، فأكثر الناس إذا عصىٰ ربه ﷻ أصر واستكبر، والقليل الناجي من إذا عصىٰ تاب واستغفر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وهذا الكلام الذي ساقه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب هنا، سبقه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٩)، وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر التوبة (٤٢٥١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه أيضًا الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٢) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: بل فيه لين، وقال في موضع آخر: فيه ضعف، وقال الزين العراقي: فيه علي بن مسعدة ضعفه البخاري. المناوي: وقال جدي في «أماليه»: حديث فيه ضعف، لكن انتصر ابن القطان لتصحيح الحاكم، وقال: ابن مسعدة صالح الحديث، وغرابته إنما هي فيما انفرد به عن قتادة. وانظر: «فيض القدير» للمناوي (٥/ ١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب استغفار النبي ﷺ (٦٣٠٧).

إليه ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب» وذكر أن السعادة بثلاث: «شُكْر النعمة، والصبر علىٰ البلاء، والتوبة من الذنب»، وبتحقيق هذه الأمور الثلاثة تكمل سعادة العبد في الدنيا والآخرة، وبنقصها ووقوع الخلل فيها يحصل من الشقاء فبقدر تفويتها والتفريط فيها.

❁ ❁ ❁

• المتن •

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٦٥].

فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته؛ فاعلم أن العبادة لا تسمَّىٰ عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّىٰ صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت؛ كالحدث إذا دخل في الطهارة.

• الشرح •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**اعلم أرشدك الله لطاعته**».

تعريف الرشد: الرشد ضد الغي، وهو إصابة وجه الأمر والطريق، وهو نقيض الضلال.

واصطلاحًا: هو الصلاح في الدين والمال.

وهذا دعاء للمتعلم بأن يرشده الله إلىٰ الطاعة، فالرشاد هو أن يسلك العبد الصراط المستقيم، ويلزم ما دل عليه النقل والعقل والعُرف، فالرشيد هو الذي يجتنب الأمور المخالفة لشرع الله ﷺ، والأمور التي تقدح في العقل، وتقدح فيما تعارف عليه الناس.

وضد الرشد: الغي، والغي هو أن يسلك صراط المغضوب عليهم والضالين، أو أن يفعل أفعالًا يُعاب بها ويُذم علىٰ فعلها.

ثم خصَّ الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- هذا الرشاد بالطاعة، وإن كانت

الطاعة داخلةً تحت مسمَّىٰ الرشاد، لكن هذا من باب التأكيد والتخصيص.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالىٰ عنه، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ، والله إني لأُحبك،**»، فقال: «**أوصيتك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١).

قال رحمه الله: «**أن الحنيفية ملة إبراهيم**».

أصل الحنف: الميل، والحنف من ألفاظ الأضداد، يُطلق علىٰ الميل، ويُطلق علىٰ الاستقامة، يُقال: رجلٌ أحنف إذا كان في ساقيه ميل، كما يقال: رجلٌ حنيف إذا استقام، وكلا المعنيين صحيح، فالحنيف هو الذي مال من الشرك إلىٰ التوحيد، فوصف الله إبراهيم بالحنيف؛ لأنه مال بكليته من الشرك إلىٰ التوحيد واستقام علىٰ أمر الله عز وجل استقامةً تامةً: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وعن داود بن الحصين، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلىٰ الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»(٢)، وهذا الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»: كتاب الصلاة- باب في الاستغفار (**١٥٢٢**)، والنسائي في «المجتبىٰ»: كتاب السهو- باب نوع آخر من الدعاء (**١٣٠٣**)، وأحمد في «مسنده» (**٥/ ٢٤٤، ٢٤٥**)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (**١/ ٢٣٦**)، وعبد بن حميد في المسند (ص/**١٩٩** رقم **٥٦٩**)، والبخاري في الأدب المفرد (ص/**١٠٨** رقم **٢٨٧** وابن المنذر في تفسيره، وأبو إسحاق الحربي في غريب الحديث (**١/ ٢٩١**)، والطبراني في المعجم الكبير =

في إسناده اضطراب وقد علقه البخاري في صحيحه رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]، ومن أهل العلم من يحسنه[(٢)] ومعناه صحيح: فقد جاء الدين بالسماحة واليسر وعدم التعسير.

ثم وضح هذه الحنيفية بقوله: «أن تعبد الله مخلصًا له الدين».

قال: عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقواعد ملة إبراهيم ثلاث:-

القاعدة الأولىٰ: عبادة الله وحده، بإخلاص العبادة لله.

القاعدة الثانية: موالاة أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ.

القاعدة الثالثة: البراءة من أعداء الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

أي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ الإنس والجن لعبادته، وقوله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، استثناء مفرغ من أعم الأحوال: أي ما خلق الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

= (١١/ ٢٢٧ رقم ١١٥٧١، ١١٥٧٢)، والأوسط (١/ ٣٠٠ رقم ١٠٠٦)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (رقم ٤٠٩٨، ٤٠٩٩) كلهم من طريق محمد بن إِسْحَاقَ أخبرنا دَاوُدُ بن الْحُصَيْنِ عن عِكْرِمَةَ عَنِ ابن عَبَّاسٍ قال: قِيلَ يا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أي الأَدْيَانِ أَحَبُّ إلىٰ اللَّهِ؟ قال: «**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**» والسياق لابن المنذر. فيه محمد بن إسحاق عنعن عند جميع من خرَّجه إلا ابن المنذر، وداود بن الحصين في روايته عن داود منكرات).

(١) وعلَّقه البخاري في صحيحه. كتاب الإيمان. بَابٌ الدِّينُ يُسْرٌ، وَقَوْلُ النبيِّ ﷺ: «**أَحَبُّ الدِّينِ إلىٰ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**» (١/ ٢٣).

(٢) حسَّنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٩٤).

اختلف أهل التفسير في اللام هنا علىٰ قولين:-

القول الأول: اللام هنا لام تعليلية لعلة غائية؛ أي الغاية من خلقهم أن يعبدوه، وقد تقع العبادة وقد لا تقع، وهذا قول علي بن أبي طالب، ومجاهد، وقول أكثر المفسرين.

القول الثاني: اللام هنا لام تعليلية لعلة موجبة؛ أي لا بدَّ أن تقع العبادة، وهذا قد مال إليه ابن جرير الطبري[1]، وهو قول لابن عباس.

وكلا القولين صحيح، فمن حيث الاختيار فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل للعباد مشيئةً وخلقهم لغاية العبادة، فمنهم من يدخل تحت هذه العبودية لله عَزَّ وَجَلَّ، ومنهم من لا يدخل، وأما من حيث دخولهم تحت قهره وقوته، وأنهم أذلاء ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فلا أحد يخرج من العبودية بهذا المعنىٰ وإن كفر، فيكون المعنىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي ليكونوا عبيدًا لي ذُلًا وقهرًا وخضوعًا، وهذا واقع.

الجن: هم عالمٌ غيبيٌّ مخفيٌّ عنا، طبيعته الاستتار والتخفِّي، له خصائص خصَّه الله بها، خلقهم الله من نار، وهم مكلَّفون؛ فالمطيع ينعم، والفاجر والكافر يُعذَّب.

الإنس: سُمو بذلك لأنهم لا يعيشون بدون إيناس فهم يأنس بعضهم ببعض.

إذا تقرر ذلك فلا بدَّ أن نعرف معنىٰ العبادة؟

العبادة في اللغة: من التذلل والخضوع، فأصل العبادة هو الذل

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٢/ ٤٤٥).

والخضوع، وسُمِّيَ العبد عبدًا؛ لأنه ذليل لسيده، فكذلك العبودية لله ﷻ، تُسمىٰ بذلك؛ لأن العبد ذليل لله ﷻ خاضع له ﷻ.

العبادة في الاصطلاح: لأهل العلم فيها عدة تعريفات:

القول الأول: العبادة هي امتثال ما أمر الله به وما أمر به رسوله ﷺ، واجتناب ما نهىٰ الله عنه ونهىٰ عنه رسوله ﷺ.

القول الثانىٰ: أن العبادة كمال الحب والذل والخضوع لله ﷻ.

القول الثالث: أن العبادة هي ما أمر الله به ورسوله من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي.

ومن أفضل التعاريف تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ عندما قال: «والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»[١].

وقد قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في هذا المعنىٰ[٢]:-

وعبادة الرحمن غاية حُبِّه ... مع ذل عابده هما قطبانِ

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتىٰ قامت القطبانِ

أي قطب الخوف وقطب الذل، وقال ابن رجب: العبادة هي كمال الذل والخضوع[٣].

و هذه المعاني كلها صحيحة، وقد أخذ أهل العلم من معنىٰ العبادة أن لها

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٤٩).

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص٣٢.

(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٥٥٦).

ثلاثة أركان لا بدَّ أن تتحقق في العبد، ومتىٰ ما خلا قلب العبد من أحد هذه الأركان الثلاثة فإن عبادته لا تُسمىٰ عبادة، وهي:

الركن الأول: الخوف.

الركن الثاني: المحبة.

الركن الثالث: الرجاء.

وبعض أهل العلم من يقدم المحبة ويثني ويثلث بالخوف والرجاء.

هذه الأركان الثلاثة تدور عليها العبادة فلا يمكن لأحد أن يعبد الله وهو لا يحبه ﷻ، ولا يمكن أن يعبده وهو لا يخافه، ولا يمكن أن يعبده وهو لا يرجوه؛ ولذلك قال بعض أهل العلم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري[(١)].

وشبَّه ابن رجب العبادة بأركانها بالطائر فقال: رأسه الحب، والجناحان الخوف والرجاء، فالحب يسوقه ويحدوه، والخوف والرجاء جنحاه التي يطير بها. فالمؤمن يصلي ويصوم ويزكي ويحج لماذا؟ وذلك لأمور منها:

أولًا: حبًّا لله فتطيعه في هذا العمل.

ثانيًا: خوفًا من أن تعذب إذا عصيته بترك هذه العبادة.

ثالثًا: لأنك ترجو بهذا العمل الثواب منه ﷻ.

أما قول بعض الصوفية: والله ما عبدنا الله طلبًا لجنته ولا خوفًا من ناره،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦).

ولكن عبدناه محبةً له، فهذا قول باطل، وإنما يعبد الله ﷻ بهذه الأركان الثلاثة الخوف، والرجاء، والمحبة.

وللعبادة شرطان:

الشرط الأول: إخلاص العبادة لله ﷻ، وهو مضمون هذا الكتاب.

الشرط الثاني: أن يكون العمل موافقًا لهدي رسول الله ﷺ.

ويعبر عنهما اختصارًا بالإخلاص والمتابعة، فإذا فُقِدَ الإخلاص في بعض الأعمال فيبطل هذا العمل وحده، ولا يتعداه إلىٰ غيره، وهذا يكون بالرياء، وهو شرك أصغر.

أما إذا وقع في الشرك الأكبر، وصرف العبادة لغير الله ﷻ، فقد خرج من دائرة الإسلام بهذا الفعل، وتبطل جميع أعماله.

والناس في هذين الشرطين علىٰ مراتب أربع:

المرتبة الأولىٰ: من حقق الإخلاص والمتابعة وهؤلاء الصفوة من خلق الله ﷻ.

المرتبة الثانية: من حقق الإخلاص دون المتابعة، وهذا قد يؤجر علىٰ إخلاصه ونيته إن كان جاهلًا بهدي النبي ﷺ، وأما إذا علم أنه مخالفٌ لهدي النبي ﷺ فإنه يأثم.

المرتبة الثالثة: من حقق المتابعة دون الإخلاص، وهذا لا يؤجر في عمله ولا يُثاب عليه، بل يعاقب من جهة الرياء إذا كان مرائيًا، ويعاقب أيضًا إذا كان الفعل المأمور به واجبًا؛ فيعاقب علىٰ تركه الواجب والوقوع في الرياء.

المرتبة الرابعة: من لم يحقق الإخلاص والمتابعة؛ يعني فعلَ فعلًا يتقرب

به لغير الله، وهو علىٰ غير هدي رسول الله ﷺ، فهذا هو أضل الخلق وأشقاهم، وهذا لا يتصور إلا من الكفرة الذين يعبدون غير الله بطريقة مبتدعة مخترعة لم يأتِ بها النبي ﷺ.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك: «**فاعلم أن العبادة لا تسمَّىٰ عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّىٰ صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة**».

هنا بين المؤلف رحمه الله تعالىٰ مسألةً مهمةً؛ وهي أن العبادة لا تسمَّىٰ عبادةً إلا إذا خلت من الشرك، وعلىٰ هذا أي عمل يدخله الشرك فإنه باطل، والشرك إما أن يبطل العمل كله، وإما أن يبطل ذلك العمل بعينه.

فإذا وقع العبد في الشرك الأكبر وهو ممن يكثر الصيام في النهار، والقيام في الليل فإنه لا يسمَّىٰ عابدًا لله علىٰ الحقيقة، وإنما يسمَّىٰ مشركًا كافرًا، ولو قضىٰ عمره كله في عبادة الله ﷻ فيما يظهر للناس، وأشرك بالله مرةً واحدةً فإنه يخرج من دائرة الإسلام بهذا العمل ولا يسمَّىٰ عابدًا، لأن العبادة شرطها الإخلاص.

أما إذا وقع في العبادة شرك أصغر مثل الرياء، فإنه يبطل العمل الذي خالطه ذلك الرياء بعينه، ويبقىٰ باقي عمله علىٰ الصحة والصواب، ويسمَّىٰ عابدًا فيما لم يراءِ فيه.

ومقصود المؤلف هنا ليس الشرك الأصغر، وإنما مقصوده الشرك الأكبر، فلا تسمَّىٰ العبادة عبادةً إلا إذا خلت من الشرك.

وبهذا يُرد علىٰ القبوريين القائلين: كيف تضيع أعمال الخلق وهم

يصومون، ويقومون ويعبدون الله ليلًا نهارًا، ويحجون ويزكون ويتصدقون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟

نقول: إن وقوعهم في الشرك الأكبر أبطل جميع أعمالهم، ويجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة هباءً منثورًا.

فكما من استحل الخمر كفر، وبطل عمله كله ولم ينفعه صيام ولا قيام فالشرك أعظم من استحلال الخمر.

❁ ❁ ❁

• المتن •

«فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، الذي قال فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦]، وذلك بمعرفة أربع قواعد، ذكرها الله تعالىٰ في كتابه».

• الشرح •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل»**.

تعريف الشرك لغةً: من الشراكة، وهو كون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما.

شرعًا: صرف شيء من خصائص الله لغير الله أو مساواة المخلوق بالخالق أو صرف شيء من العبادة لغير الله.

أنواع الشرك:

من أهل العلم من يقسم الشرك إلىٰ ثلاثة أقسام

١- الشرك الأكبر.

٢- الشرك الأصغر.

٣- الشرك الخفي.

ومن أهل العلم من يقسمه إلىٰ قسمين:

١- شرك أكبر.

٢- شرك أصغر.

ويجعل الشرك الخفي ضمن الأكبر والأصغر لا قسيما لهما.

ومن أهل العلم من يقسم الشرك الأكبر باعتبار ما يجب لله إلىٰ أنواع:

١- الشرك في الربوبية: وهو اعتقاد أن ثمة متصرف في الكون مع الله من جهة الخلق والتدبير، أو صرف شيء من أفعال الله لغير الله كالخلق والرزق وما شابهه.

وهو قسمان:

أ- شرك التعطيل وهو تعطيل الرب من خصائص الربوبية وإنكار ربوبيته.

ب- شرك التمثيل وهو تسوية المخلوق بالخالق في شي من خصائص الربوبية قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

٢. الشرك في الألوهية وهو صرف العبادة لغير الله وهذا الشرك هو الذي لأجله بعث الله الرسل وأنزل الكتب، وهو أكثر شرك العالمين وأدلته كثيرة جدًّا من الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

وهذا الشرك أنواع:

١- شرك النية والإرادة والقصد: وهذا متعلق بالقلب، وهو أن يكون المقصد من العبادة غير الله.

٢- شرك الدعاء: وهو دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٣- شرك الطاعة: وهو أن يجعل مع الله مشرعًا، له حق التشريع، قال الله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾.

٤- شرك المحبة: وهو اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله، أو أن يحب مخلوق كحبه لله محبة ذل وخضوع، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾.

٥- شرك الخوف: وهو أن يخاف المخلوق أن يصيبه بشيء لا يقدر عليه إلا الله، وهو خوف السر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾.

٦- الشرك في الأسماء والصفات: وهو مساواة المخلوق بالخالق من جهة أسمائه أو صفاته، أو اعتقاد أن المخلوق متصفٌ بما هو من خصائص الخالق من جهة صفاته.

مراد الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- أن الشرك الأكبر مناقض للإسلام، ومُبطل للتوحيد، وأن العبد إذا صام النهار وقام الليل وتصدَّق بأمواله كلها ثم أشرك بالله طرفة عين فإن عمله كله يبطل، ويكون خارجًا من دائرة الإسلام كافرًا بالله ﷻ، فكما أن الطهارة يفسدها الحدث، فكذلك التوحيد يفسده الشرك.

وإذا وقع العبد في الشرك فإنه يترتب عليه أمور في الدنيا والآخرة:

فالأمور الدنيوية: إذا قامت عليه الحجة يحكم عليه بالكفر والشرك، ويكون حلال الدم، فتبطل ولايته، ويبطل نكاحه، وتحرم ذبيحته.

أما في الآخرة: فيكون خالدًا مخلدًا في نار جهنم، لا يخرج منها أبدًا لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأن جميع أعماله التي فعلها قبل الشرك

تحبط وتبطل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لذلك يجب علىٰ المسلم أن يعرفه، ويعرف صوره، وأن يعرف أسبابه؛ حتىٰ لا يقع فيها وهو لا يشعر، وكما قال حذيفة رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني . .»[(١)].

وكما قال الآخر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

والصحيح من أقوال أهل العلم: أن الشرك الأكبر والأصغر لا يغفران، إلا أن الأكبر يوجب الخلود في النار، ويحبط جميع الأعمال، أما الشرك الأصغر فلا يحبطها كلها، وإنما يحبط العمل الذي خالطه.

ثم استدل رحمه الله بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وهذه الآية فيها دليل لأهل السُنة في الرد علىٰ الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة يُخلد في نار جهنم، وأنه يكفر بها، ورد علىٰ الصوفية القائلين بأن الشرك لا يكون شركًا أكبر إلا في الربوبية، وهذا باطل بأدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف.

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية بيَّن أنه لا يغفر أن يشرك به، وما دون الشرك فإنه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٦٠٦)، و مسلم في كتاب الإمارة (١٨٤٧)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٤٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

تحت مشيئة الله، وأن الله يغفره ﷻ، فلو تاب هؤلاء المشركون فلا يسمون: مشركين بعد توبتهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه**».

القواعد لغةً: جمع قاعدة، وهي أساس الشيء.

اصطلاحًا: هي قضية كلية تنطبق علىٰ جميع جزئياتها.

والقواعد تدخل في أبواب كثيرة، فكل علم له قواعد تخصه؛ فالفقه له قواعد، وكذا الحديث، وكذا التفسير، وكذا العقيدة، وهذه القواعد التي معنا تتعلق بالعقيدة، وهي قواعد قطعية الثبوت ومسلم بها.

وفي هذه الرسالة يفيدك شيخ الإسلام بأن هذه القواعد التي قعدها لم تكن اجتهادًا منه - رحمه الله تعالىٰ - ولم تكن مبنيةً علىٰ آراء وأقوال لا دليل عليها، وإنما مردها إلىٰ الكتاب والسُنة، واقتصر علىٰ هذه القواعد الأربع؛ لأنها جمعت الأصول التي يحتاجها الموحد، ووضحت شبه المبطلين وحجج الكاذبين الكافرين، ففي هذه القواعد الأربع تقرير وفيها إبطال ورد.

فأول هذه القواعد: تتعلق بأن العبد لا يدخل الإسلام إلا بتحقيق توحيد الألوهية، وأن توحيد الربوبية لا يكفي معتقده في دخول الإسلام.

والقاعدة الثانية: رد علىٰ المبطلين في تعلقهم بالأولياء والصالحين.

والقاعدة الثالثة: أن الله لم يفرق بين شرك وشرك، وإنما حكم علىٰ كل من صرف العبادة إلىٰ غير الله ﷻ أنه مشرك كافر.

والقاعدة الرابعة: قاعدة تكميلية وتوضيحية وهي أن مشركي العرب أخف شركًا من مشركي زماننا من جهتين: من جهة الكيف، ومن جهة الكم.

أما من جهة الكيف؛ فمشركو العرب كانوا يشركون في زمن الرخاء، وأما مشركو زماننا فيشركون في الرخاء والشدة.

وأما من جهة الكم؛ أن مشركو العرب كانوا يشركون بالأولياء والصالحين وأحجار وأشجار لا تعصي الله ﷻ، أما مشركو زماننا فقد أشركوا بفجرة وكفرة وضلال، فلا شك أن حال كفار قريش أخف من جهة الكيف ومن جهة الكم.

ولا يعني هذا أنهم علىٰ هدًىٰ وعلىٰ إسلام، بل الجميع يشتركون في كونهم كفارًا مشركين خارجين من دائرة الإسلام.

• المتن •

القاعدة الأولىٰ: أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بأن الله تعالىٰ هو الخالق الرزَّاق المدبر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

• الشرح •

يقولون بأن الله ﷻ هو الخالق الرزَّاق المحيي المميت، ويقرون بربوبيته ﷻ، وهذا التقرير الذي قرَّره شيخ الإسلام فيه مسائل، وفيه فوائد: -

المسألة الأولىٰ: أن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يُدخل العبد في الإسلام وحده، وإن كان عدم الإقرار به كفر بالله ﷻ ويخرج من دائرة الإسلام، وبهذا يرد شيخ الإسلام علىٰ القبوريين القائلين: بأن كفار قريش إنما كفروا بجحودهم لربوبية الله ﷻ، وعدم إقرارهم بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت.

فالمقر بتوحيد الربوبية لا يدخل في دائرة الإسلام حتىٰ يأتي بلازمة وهو توحيد الألوهية.

المسألة الثانية: أن كفار قريش كانوا يقرون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام.

المسألة الثالثة: أن من أنكر من جهلة القبوريين والخرافيين أن كفار قريش يقرُّون بتوحيد الربوبية، فهو جاهل بكتاب الله ﷻ، وجاهل بتاريخهم، وقد

ألَّف بعضهم في ذلك رسالةً وسمَّاها: (مفاهيم يجب أن تصحَّح)، وذكر فيها أن كفر وشرك كفار قريش كان في توحيد الربوبية لا في توحيد الألوهية، وهذا من أبطل الباطل، وأدلته في الكتاب أكثر من أن تُحصىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فهم يقرُّون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر.

المسألة الرابعة: أن خصام الأنبياء مع أممهم وخلافهم ونزاعهم مع الأمم ليس في توحيد الربوبية، فإن هذا التوحيد قد أقر به جميع الطوائف، وآمن به جميع الخلق وقد أخذ الله ﷻ الميثاق علىٰ خلقه وهم في صلب آبائهم بأنه ربهم وخالقهم.

الطوائف التي أنكرت توحيد الربوبية أو أشركت فيه هي: -

الطائفة الأولىٰ: فرعون لعنه الله عندما قال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وهذي دعوىٰ كاذبة وباطلة؛ لا دليل عليها ولا برهان بل هو كان يعلم أن الله هو رب السموات والأرض كما قال تعالىٰ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] وكان في قرارة نفسه مقرٌ بالربوبية، ولكن منعه تجبره وعناده وتكبره؛ لأنه كما أخبر الله ﷻ عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فهو في الحقيقة يقر بأن الله الخالق الرزَّاق المدبر، ولكن مكابرةً وتجبرًا وعنادًا أنكر وادَّعىٰ أنه هو الرب.

الطائفة الثانية: الدهريون الذين يقولون: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وهذا المذهب كان عليه بعض مشركي العرب قبل البعثة.

وهما قسمان:

القسم الأول: أنكروا الخالق ﷻ.

القسم الثاني: أنكروا البعث والمعاد.

وهذه الطائفة كاذبة، وإلا فإنها في حقيقتها تقرُّ بأن هناك من يخلقها، وهناك من يميتها، ولكن من باب المكابرة نسبت ذلك كله إلىٰ الدهر وإلىٰ الطبيعة.

الطائفة الثالثة: الملاحدة الشيوعيون الذين يقولون: لا إله والحياة مادة فأنكروا ربوبية الله، وأنكروا وجوده وذلك قائم علىٰ عقيدتهم الفاسدة الفاجرة التي تقوم علىٰ الكفر بالغيب والإيمان بالمحسوس والمادة وإنكار وجود الله.

الطائفة الرابعة: المجوس الثانوية أو المانوية القائلون: بأن للخلق خالقين خالقًا للخير وخالقًا للشر، وينسبون الخير للنور والشر للظلمة، وهم مقرون أيضًا أن الخير يغلب الشر، وأن النور يغلب الظلمة.

الطائفة الخامسة: القدرية مجوس هذه الأمة القائلون: بأن العبد يخلق فعل نفسه فسلبوا الله ﷻ قدرته علىٰ خلق أفعال العباد والقدرية هم المعتزلة.

الطائفة السادسة: بعض مشركي العرب الذين نسبوا إنزال المطر إلىٰ النجوم، فجعلوا الأنواء والنجوم هي التي تنزل المطر فينسبون إنزال المطر لها.

وفي الحقيقة جميع هذه الطوائف تقر بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت.

وقد بالغ بعض أهل العلم فكفّر كل من أنكر هذا التوحيد، ولم يعذره سواءً بلغته الحجة أو لم تبلغه، وعدَّ إنكار توحيد الربوبية مخالفًا للفطرة، وأن صاحبه خالد مُخلد في نار جهنم؛ لأن هذا هو الميثاق الفطري؛ وقد بلغهم وخص توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية.

والأقرب والله أعلم: أن حكمه كحكم من لم تبلغه دعوة الرسل، ولم تبلغه حجة الله ﷻ، فإنه يمتحن يوم القيامة، فإن أجاب دخل الجنة، وإن عصىٰ دخل النار.

المسألة الخامسة: كثير من الناس يجهل الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهذا بسبب سوء الفهم وسوء الاعتقاد، فيجعل الكفر مقصورًا علىٰ إنكار توحيد الربوبية؛ فالأشاعرة يرون أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناها عندهم: لا خالق ولا رزَّاق ولا مدبر إلا الله، ويعبِّرون عنه بقولهم: الغني عما سواه الفقير إليه ما عداه، ويعبرون بقولهم: القادر علىٰ الاختراع.

وهذا الاعتقاد الفاسد انبَنَىٰ عليه أصول فاسدة:-

منها أن من دعا الأولياء وتوسَّل بهم وتقرَّب إليهم من دون الله وهو يقر بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر يبقىٰ مسلمًا، ما دام أنه لا ينكر توحيد الربوبية، وقد ابتلي شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في زمانه بطائفة تقول: إن عبّاد القبور، وعبّاد الأضرحة، والذين يذبحون عند هذه القبور، ويتقربون إليها من دون الله ﷻ، مقرون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت، فكيف تكفرونهم، وكيف تخرجونهم من دائرة الإسلام؟

فردَّ علىٰ هؤلاء بكتاب «كشف الشبهات»، وكتاب «القواعد الأربع» وهو عبارة عن اختصار لكتاب «كشف الشبهات»، ما فرّقه هناك جمعه هنا في أربع قواعد.

فكأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لك في هذه القاعدة: أن النبي ﷺ أتىٰ إلىٰ قوم يقرون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت، ومع ذلك لم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، وكفرهم الله وكفرهم رسوله ﷺ.

وأنتم أيضًا يا من في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقرون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت، إلا أنكم شابهتم كفار قريش بأنكم عبدتم غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصرفتم العبادة لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وذلك بالتقرب للأولياء، والتقرب للصالحين، وليست العبرة بنوع المتقرب إليه، إنما العبرة بصرف العبادة لغير الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذه القاعدة فيها تقرير ورد:-

وجه التقرير: أن توحيد الربوبية وحده لا يُدخل العبدَ في الإسلام، وتوحيد الربوبية ليس فيه نزاع بين الرسل وأممهم.

أما وجه الرد في هذه القاعدة:

أولًا: أن توحيد الربوبية وحده لا يعصم الدم والمال،

ثانيًا: أن توحيد الربوبية ليس هو معنىٰ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأن معناها: لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذه خلاصة القاعدة الأولىٰ، والقاعدة الثانية مكملة لهذه القاعدة، وكأنها ردٌّ علىٰ من يقول، إنما اتخذنا هؤلاء شفعاء ووسطاء، فبين لهم معنىٰ الشفاعة وحقيقتها وشروطها؛ حتىٰ يرد علىٰ هذه الشبهة.

❁ ❁ ❁

• المتن •

القاعدة الثانية: أنهم يقولون ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، فدليل القربة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، **ودليل الشفاعة قوله تعالىٰ:** ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]. **والشفاعة شفاعتان؛ شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة. فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والشفاعة المثبتة: هي التي تطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له: من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

• الشرح •

أنهم يقولون ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، فدليل القربة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

هذه القاعدة من أعظم القواعد في هذا الكتاب لأنها هدمت شُبَه الكثير من المشركين، وتبين بها الحق، واتضح بها الباطل، ففي هذه القاعدة مسائل:-

المسألة الأولىٰ: فيها رد علىٰ القبوريين والخرافيين الذين جعلوا دعاءهم للصالحين، وسؤالهم إياهم من باب الوسائل، وأن هذا العمل لا يخرج من دائرة الإسلام، ولا ينافي التوحيد من أصله، ووجه الرد: أن هذه الدعوىٰ هي دعوىٰ كفار قريش والمشركين في زمن النبي ﷺ، فهم يقرُّون أن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت، إلا أنهم دعوا اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ومناة وغيرها من الأصنام والأوثان، من باب أنها شفعاء ووسطاء ووسائل تقربهم إلىٰ الله ﷻ، فأخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهم يقرون بأن الله ﷻ هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت ومع ذلك كفرهم الله ﷻ.

المسألة الثانية: أن الألفاظ لا تغير الحقائق، والمباني لا تغيرالمعاني وتسمية الأشياء بغير أسمائها لا يغير حقيقة الشيء، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء، فإذا أطلقوا علىٰ شركهم بالله ﷻ أنه توسل؛ فهذا لا يغير من حقيقة أنهم يعبدون تلك الأوثان، وتلك الأنداد وتلك الأصنام من دون الله ﷻ.

أما قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] فالهداية المنفية هنا: هي هداية التوفيق، فالله ﷻ علم من الكافر أنه لا يهتدي مع وجود هداية الدلالة والإرشاد لديه لكنه لم يستجب لدعوة الرسل والمصلحين بل رضي بالكفر وسعىٰ فيه، فحرم توفيق الله بسبب ما علم الله منه من سعيه في الكفر فلم يوفق إلىٰ الطريق المستقيم، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

والهداية قسمان:

القسم الأول: هداية توفيق وهي خاصة بالله يتفضل بها علىٰ من يشاء من

عباده كلٌّ بحسب ما علم الله منه من الخير في قلبه، وما بذله من أسباب الهداية.

القسم الثاني: هداية الدلالة والإرشاد وهذه الهداية هي وظيفة الرسل والأنبياء والمصلحين وبها تقوم الحجة علىٰ الخلق، وهي عامة للجن والإنس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. أي دللناه وبينا له.

ودليل الشفاعة قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

من أهم المسائل في تعريف معنىٰ العبادة: وذلك أن كثيرًا من الناس يجهل معنىٰ العبادة، ويقصر العبادة علىٰ اعتقاد أن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت، وأنه لا ينافي تلك العبادة إلا اعتقادك أن مع الله خالقًا رزَّاقًا يحيي ويميت من دون الله ﷻ، وهذا القول باطل، فكفار قريش كانوا يقرون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المحيي المميت، ومع ذلك لما سألوا الأولياء، وسألوا الصالحين، واللات والعزىٰ وتقربوا إليها بأنواع القرب كي تقربهم من الله ﷻ؛ كفروا بهذا التقرب وكذلك يقال لمن عَبَدَ عبد القادر الجيلاني أو العيدروس أو الدسوقي أو البدوي أو غيرهم ممن يعبدون من دون الله ﷻ وإن سموا عبادتهم: توسلًا أو توجهًا أو اتخاذهم شفعاء.

فإن العبادة: أصلها من التذلل والخضوع، يُقال طريق معبَّد إذا ذللته الأقدام بالوطء ومن جهة الإصلاح: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح.

فكل ما هو عبادة فصرفه لغير الله يدخل في دائرة الشرك، فالعبادة إذًا هي أن نوحد الله ﷻ بأفعالنا وأن لا نصرفها إلا له ﷻ، ومن صرف هذه العبادة للأولياء والصالحين فقد كفر بالله العظيم.

• المتن •

والشفاعة شفاعتان؛ شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة. فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والشفاعة المثبتة: هي التي تطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له: من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

• الشرح •

الشفاعة لغةً: أصلها من الضم والاجتماع، وذلك بأن يجمع الشافع قوله إلىٰ المشفوع له فيما يشفع فيه، وعندما يسألك شخص شفاعةً فأنت تضم قولك إلىٰ قوله، فأصلها في اللغة: من جعل الواحد اثنين إذا قُرن إليه غيره.

والشفاعة في الاصطلاح: هو أن يضم الشافع قوله إلىٰ قول المشفوع له فيمن يشفع عنده.

وفيها مسائل:-

المسألة الأولىٰ: العلم بأن الشفاعة ملك لله ﷻ، ولا تطلب إلا من الله ﷻ ومن طلبها من غير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ كمن يطلب الشفاعة من ميت أو ولي صالح ليشفع له عند الله ﷻ - فإنه يكون بهذا الطلب خرج من دائرة الإسلام، وأما ما يحتج به القبوريون من الشبه في باب الشفاعة؛ فأول ما يحتجون به أن الناس يوم القيامة يسألون النبي ﷺ

الشفاعة، وهذا لا حجة فيه وذلك لأمور:-

الأمر الأول: أن النبي ﷺ في عرصات القيامة حي بروحه وجسده ﷺ، وطلب الشفاعة من الحي الحاضر لا إشكال فيه، إذا كان المطلوب فيما يقدر عليه، أما إذا كان لا يقدر عليه فإنها تدخل تحت المحرم، أو تصل إلىٰ الشرك الأكبر.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ في ذلك المقام لا يشفع حتىٰ يأذن الله له، وعندما يأتي إلىٰ ربه سبحانه وتعالى ويخر ساجدًا، فيقول الله عز وجل: «يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطَ واشفع تُشفع»[1] عندئذ يشفع ﷺ ولا يشفع قبل أن يأذن الله له.

إذًا الشفاعة لا يبتدئها الرسول ﷺ، وإنما يسألها بعدما يأذن الله له، وسؤال الناس شفاعته لا إشكال فيه لأنهم يسألون حيًّا حاضرًا، أما بعد موته ﷺ وقبل بعثه فلا يجوز.

فإن سؤال الشفاعة من الأموات تدخل تحت دائرة الدعاء فإنك عندما تخاطب ميتًا في الشفاعة تقول: اشفع لي فإن سؤالك إياه يدخل في دعوته.

ودعوته بالاتفاق شرك أكبر، وطلب الشفاعة من الأموات حقيقته أنه طلب ودعاء وإن عبر عنه بصيغة الشفاعة فلا فرق بين دعائه وطلب الشفاعة فكلاهما من الشرك الأكبر، ويتفق المسلمون علىٰ أنها شرك أكبر إذا سأل الشفاعة من الميت وهو غائب عنه -أي إذا كان بعيدًا عن قبر الرسول ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٠٧٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فهذا بالإجماع شرك أكبر لسببين:-

السبب الأول: أنه دعاء النبي ﷺ من دون الله.

السبب الثاني: أنه اعتقد أن النبي ﷺ يعلم الغيب أو يسمع دعائه من بعيد ولا شك أن هذا الادعاء وهذا الاعتقاد يُخرج العبد من دائرة الإسلام، وإن كان بعضهم وقع عنده خلاف في مسألة وهي إذا سأل النبي ﷺ عند قبره، والصحيح أن سؤال النبيﷺ عند قبره بطلب الشفاعة مُخرج من دائرة الإسلام؛ لأنه شرك أكبر.

فنقول: أولًا: أن الشفاعة ملك لله ﷻ.

ثانيًا: أن الشفاعة لا تطلب إلا من الله ﷻ ولا تطلب من المخلوق بعد موته وقبل بعثته.

المسألة الثانية: أن النبي ﷺ يسمع سلام من سلم عليه لحديث أبي هريرة: «**ما من أحد يُسِّلم عليَّ عند قبري إلا رد الله عليَّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود:، كتاب الحج: باب زيارة القبور، حديث (٢/ ٢١٨) (٢٠٤١) وهو عند البيهقي (٥/ ٢٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٦٢، ٩/ ١٣٠) قال المنذري في إسناده أبو صخر حميد بن زياد، وقد أخرج له مسلم في «صحيحه»، وقد أنكر عليه شيء من حديثه وضعفه يحيىٰ بن معين مرة ووثقه أخرىٰ، وقال في التقريب: حميد بن زياد أبو صخر صدوق يهم من السادسة، وقال في الكاشف: مختلف فيه، وقال أحمد: ليس به بأس. قال الحافظ في «الفتح» ٦/ ٤٨٨: رواته ثقات. وقال العجلوني في كشف الخفا: صحيح، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (رقم٩٨٤): وهو صحيح وفي توجيه معناه أوجه بينتها في القول البديع. والصحيحة (٥/ ٣٣٨ ح٢٢٦٦)، وقال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي في الرد =

وهذا الحديث لا بأس بإسناده، فقد رواه أبو داود وغيره من طريق أبي صخر عن يزيد بن عبدالله عن أبي هريرة رضي الله عنه الحديث لكن ليس فيه أنه يسأله ويدعوه من دون الله عز وجل، وإنما فيه أنه خاطب النبي ﷺ بالسلام، والسلام من باب الدعاء للميت.

ولا شكَّ أن من دعا للميت فإن دعاءه يبلغه وخُصَّ النبي ﷺ بخصيصة، وهي: أنه يسمع سلامه، وأنه يمكَّن من رد السلام عليه إذا كان داخل الحجرة، أما إذا كان خارج الحجرة فإن النبي لا يسمعه، وإنما يبلغه، كما قال علي بن الحسين زين العابدين عندما رأىٰ رجلًا ينتهي إلىٰ خوخة عند القبر ويسلم علىٰ النبي ﷺ قال: «ما أنت والذي بالصين إلا سواء». فطلب الشفاعة من النبي ﷺ داخل تحت مُسمىٰ: صرف العبادة لغير الله عز وجل، وهو شرك أكبر، وأن احتجاج من احتج بسلام النبي ﷺ ورد الروح إليه بأنه كالأحياء باطل، والشارع أذن لنا بالسلام عليه لا بدعائه وسؤاله.

الأمر الثالث: أن مخاطبة النبي ﷺ بهذا السؤال: يا رسول الله اشفع لي،

= علىٰ السبكي (ص٢٢٢) عند رده علىٰ البيهقي في معنىٰ قول النبي ﷺ في الحديث:
ما من أحدٍ يسلم علي إلا رد الله عليَّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام:
فإن قيل: ما معنىٰ قوله إلا رد الله علي روحي؟
قلت: فيه جوابان:
أحدهما: ما ذكره الحافظ أبو بكر البيهقي أن المعنىٰ إلا وقد رد الله علي روحي يعني أن النبي ﷺ بعدما مات ودفن رد الله عليه روحه لأجل سلام من يسلم عليه، واستمرت في جسده ﷺ.
والثاني: يحتمل أن يكون ردًّا معنويًّا، وأن تكون روحه الشريفة مشتغلة بشهود الحضرة الإلهية والملأ الأعلىٰ عن هذا العالم، فإذا سُلم عليه أقبلت روحه الشريفة علىٰ هذا العالم لتدرك سلام من يسلم عليه ويرد عليه.

أو يا فلان اشفع لي من باب الدعاء المخرج من دائرة الإسلام، فالذي عليه عامة أهل العلم أن طلب الشفاعة من الأموات شرك أكبر يخرج من دائرة الإسلام، وقد ظن بعضهم أن شيخ الإسلام يذهب إلىٰ أنه شرك أصغر، وأنه لا يخرج من دائرة الإسلام ومال إلىٰ هذا بعض المتأخرين، والصحيح: أنه داخل في مُسمىٰ الشرك الأكبر، وصاحبه يخرج من دائرة الإسلام، لكن لعظيم الشبهة في هذه المسألة لا بدَّ من البلاغ والبيان، فإذا أصر كفر بالله ﷻ.

والشفاعة التي أثبتها الشارع لها عدة صور، ولا بدَّ أن يتوفر فيها شروط:

الشرط الأول: أن يأذن الله ﷻ للشافع، والله لا يأذن إلا لمن حقق التوحيد، وكان من أهله. قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

الشرط الثاني: الرضا عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والله ﷻ لا يرضىٰ أن يشرك به، ولا يرضىٰ عن الكافرين، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فالشفاعة لا تكون مثبتة إلا بشرطين: الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع.

فلا يشفع شافع إلا بعد إذن الله له، ولا يشفع لمشفوع إلا إذا رَضِيَ الله ﷻ عن ذلك المشفوع له، ولا شك أن الله لا يرضىٰ إلا للموحدين ولا يأذن إلا للموحدين، فإذا كان العبد مشركًا بالله ﷻ فإنه يحرم شفاعة النبي ﷺ،

ويحرم شفاعة الصالحين والأولياء؛ لأن الله لا يرضىٰ عمن أشرك به طرفة عين، وهؤلاء أشركوا بالله ﷻ بسؤالهم ا لأولياء والصالحين أن يشفعوا لهم عند الله سبحانه وتعالى.

أما مسألة الإذن للشافع، فأن يكون الشافع ممن أذن الله لهم بالشفاعة، وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله من أحق الناس بشفاعتك؟ قال: **من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»(١)، فهو من حقق التوحيد وحقق الإخلاص كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فالذي يعبد الأولياء والصالحين لم يحقق التوحيد الخالص لله ﷻ.

أما الشفاعة التي نفاها الشارع، فهي التي اختل فيها أحد الشروط السابقة، إما أن يكون الشافع غير مأذون له، وإما أن يكون المشفوع له ليس من أهل التوحيد.

خلاصة هذه القاعدة أن دعوىٰ القبوريين ودعوىٰ المشركين أن سؤالهم الأولياء والصالحين وطلب الشفاعة منهم لا يُسمىٰ شركًا، دعوىٰ باطلة. والشفاعة عبادة لا تطلب إلا من الله ﷻ، وطلبها من غير ﷻ مخرج من دائرة الإسلام، وأن تسميتهم بالوسائل أو الوسائط لا يغير حقائق تلك الأشياء، ويبقىٰ المتلبس بهذا العمل خارجًا من دائرة الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٩٩)، وأحمد (٢/ ٣٧٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥٨٤٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» ٢/ ٦٩٩، والآجري في «الشريعة» ص ٣٤٠، وابن منده في «الإيمان» (٩٠٦)، والبغوي (٤٣٣٦). قال شيخ الإسلام في هذا الحديث: «فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله».

مسألة: مذاهب الناس في الشفاعة:

الناس في الشفاعة بين غالي وجافي، فطوائف من المشركين والقبوريين أثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن. والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعة النبي ﷺ.

وأما سلف الأمة وأئمتها وأتباعهم الذين هم أهل السنة والجماعة فأثبتوا ما أثبته الله ورسوله من الشفاعات كشفاعته ﷺ في أهل الكبائر وغيرها، ونفوا ما نفاه الله ورسوله ﷺ من الشفاعات الشركية الباطلة.

والشفاعة التي أثبتها أهل السنة تنقسم إلىٰ أقسام، فأما من حيث العموم والخصوص تنقسم الشفاعة إلىٰ قسمين؛ شفاعة خاصة، وشفاعة عامة:

القسم الأول: شفاعة خاصة بالنبي ﷺ لا تتعداه إلىٰ غيره، وهي خاصة به وهذي الشفاعة الخاصة أقسام:

أولًا: شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب وهذه خرجت عن قاعدة الرضا عن المشفوع له، وهذه من خصائص النبي ﷺ، وذلك كما جاء في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[1].

ثانيًا: شفاعته في فصل القضاء بين الخلائق، وهذا الذي يسميه أهل العلم: بالمقام المحمود، الذي يحمده عليه جميع الخلائق، وذلك أن الخلائق يفزعون يوم القيامة ويصيبهم هولٌ عظيمٌ من شدة الفزع، وفي

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٣)، ومسلم في الإيمان باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب (٢٠٩) (٣٥٩).

عرصات القيامة فيأتون آدم ثم يأتون نوحًا، ثم يأتون إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ إلىٰ أن ينتهوا إلىٰ النبي ﷺ فيقول: «**أنا لها أنا لها**»[(١)]، فهذا هو المقام المحمود الذي خصَّ الله به نبيه ﷺ.

ثالثًا: شفاعته في فتح أبواب الجنة، فلا يدخل أحد الجنة قبل النبي ﷺ، ولا تفتح أبواب الجنة إلا بعد أن يشفع رسولنا ﷺ، وهو أول من يدخلها ﷺ.

رابعًا: شفاعته ﷺ في دخول سبعين ألفٍ إلىٰ الجنة بغير حساب عن يمين العرش.

خامسًا: شفاعة يختلف فيها أهل العلم، وهي: رفع الدرجات في الجنان، وإعلاء من في الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، بعض أهل العلم خصَّ هذه الشفاعة بالنبي ﷺ، والصحيح: أن هذه الشفاعة مشتركة بين الأنبياء والأولياء والصالحين.

وهناك شفاعات أخرىٰ مشتركة بين الأنبياء وغيرهم وهي أنواع:-

أولًا: الشفاعة في أُناس وجبت لهم النار ألا يدخلوها، وهذا يشترك فيه الشهداء والأفراط والصالحون ومن شابه ذلك.

ثانيًا: الشفاعة في أُناس دخلوا النار أن يخرجوا منها، وهذا أيضًا يشترك فيها الأنبياء والرسل والملائكة والصالحون.

ثالثًا: الشفاعة في رفع الدرجات في الجنان، فيشفع الابن في أبيه لإعلاء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٠)، ومسلم في كتاب الإيمان باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها رقم ١٩٣.

منزلته، ويشفع الأب في رفع ابنه إليه وهكذا، يشفع الأعلىٰ في الأدنىٰ لرفع منازله.

تقسيم الناس في باب سؤال ودعاء الأموات إلىٰ أربعة أقسام:-

القسم الأول: من يدعو الأموات مع اعتقاده أنهم ينفعون أو يضرون استقلالًا، وهذا بإجماع المسلمين خروج من دائرة الإسلام.

القسم الثاني: من يدعو الأموات علىٰ أنهم وسائط، لا ينفعون ولا يضرون استقلالًا، ولكن يدعوهم ويسألهم علىٰ أن لهم جاه عند الله بطلب الرزق والحاجة منهم مباشرة، وهذا بالإجماع شرك أكبر مخرج من دائرة الإسلام إلا أنه دون الذي قبله.

القسم الثالث: من يدعو الأموات ليدعوا الله ﷻ له وهذا القسم أيضًا من الشرك الأكبر.

القسم الرابع: من يدعو الله متوسلًا بالصالحين، كأن يقول: «اللهم أني أتوسل إليك بجاه فلان، اللهم أني أسألك بحق فلان» فهذا التوسل وهذا الدعاء توسل باطل ودعاء بدعي، لكنه لا يخرج من دائرة الإسلام، لكنه يبقىٰ أنه شرك أصغر لأنه وسيلة من وسائل الشرك الأكبر.

والمشروع عند زيارة الأموات: أن يدعو الله لهم ويستغفر لهم، ويسأل الله لهم الثبات والرحمة.

أما في باب الوسائل فيمكن أن نقسم الوسائل إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الوسائل المحمودة هي أن يتوسل بالتوسل المشروع والتوسل المشروع هو أن يتوسل بما أجازه الشارع؛ كالتوسل بالأعمال

الصالحة؛ اللهم إني أتوسل إليك بإيماني، أتوسل إليك بصلاتي، أتوسل إليك بصيامي، أتوسل إليك بحب الصالحين، أتوسل إليك بمحبة النبي ﷺ واتباعه.

ومنه أيضا التوسل بأسماء الله وصفاته، فهذا أيضا من التوسل المشروع بل هو أعظم ما يتوسل به العبد.

القسم الثاني: الوسائل الممنوعة «الشركية» وهذا ينقسم إلىٰ أنواع:

النوع الأول: وهي أن يدعو الله ﷻ متوسلًا بجاه الصالحين وهذا شرك أصغر.

النوع الثاني: وسائل تخرج من دائرة الإسلام، وهو أن يتوسل بدعاء الأموات إلىٰ الله ﷻ، وذلك أن يدعو أحد الأموات ليدعوا الله له، ويسأله ليسأل الله له.

فهذه خلاصة القاعدة، ولقد تكلم عنها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بنفس أطول من هذا في كتابه: «كشف الشبهات»، وعندما أتىٰ عند هذه المسألة بين معنىٰ الدعاء، ومعنىٰ العبادة، ومعنىٰ الشفاعة، وأنواع الشفاعة، ثم رد علىٰ شبهة القبوريين والمشركين وما يتعلق بها من دعاء الأولياء، وأبطلها كلها من أكثر من أحد عشر وجهًا رحمه الله تعالىٰ وغفر الله له.

❁ ❁ ❁

• المتن •

القاعدة الثالثة: أن النبي ﷺظهر علىٰ أُناس متفرقين في عباداتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]، **ودليل الشمس والقمر قوله تعالىٰ:** ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، **ودليل الملائكة قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ﴾ [آل عمران: ٨٠]، **ودليل الأنبياء قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، **ودليل الصالحين قوله تعالىٰ:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، **ودليل الأحجار والأشجار قوله تعالىٰ:** ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠]، **وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما**

لهم ذات أنواط .....»[(١)].

• الشرح •

لما أنهىٰ المؤلف رحمه الله تعالىٰ القاعدة الأولىٰ والثانية أتبعها بالقاعدة الثالثة، وهذه القواعد مرتبط بعضها ببعض، ففي القاعدة الأولىٰ رد علىٰ المشركين الذين ادَّعوا أن الشيخ يكفر المسلمين، فرد عليهم الشيخ رحمه الله تعالىٰ بأن كفار قريش لم يكن شركهم في توحيد الربوبية، وما كانوا يعتقدون فيمن يعبدونه أنه ينفع ويضر استقلالًا.

القاعدة الثانية: رد علىٰ دعواهم أن اتخاذ الأولياء من باب الشفاعة والوجاهة والوساطة لا يُسمىٰ شركًا، فردَّ عليهم الشيخ رحمه الله تعالىٰ بأن كفار قريش ما كانوا يعبدون تلك الآلهة التي يعبدونها من دون الله إلا بقصد

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم: (٢١٨٠)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده»: (٢١٣٩٠)، والحميدي (٢/ ٣٧٥ برقم (٨٤٨) -ومن طريقه هذه أخرجه الطبراني في الكبير ٣/٢٤٤ برقم (٣٢٩٢)-، وابن أبي شيبةً ١٥/ ١٠١ برقم (١٩٢٢٢) من طريق سفيان- نسبه ابن أبي شيبة فقال: ابن عيينة.

وأخرجه النسائي في التفسير- ذكره المزي في «تحفة الأشراف» ١١/ ١١٢ برقم (١٥٥١٦)، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٤٣ برقم (٣٢٩٠) من طريق عبد الرزاق، أخبرنا معمر.

وأخرجه الطبراني في الكبير ٣/ ٢٤٤ برقم (٣٢٩١، ٣٢٩٣، ٣٢٩٤) من طريق مالك، وابن إسحاق، وإبراهيم بن سعد، جميعهم عن الزهري وابن حبان (الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان ٨٢٤٨)، والحاكم في المستدرك ٤٤٥٥، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي. والحديث صححه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة»: (٢٠٢).

أنها شفعاء ووسطاء ووجهاء تقربهم إلىٰ الله ﷻ، ومع ذلك كفَّرهم الله ﷻ.

القاعدة الثالثة: ردٌّ علىٰ المشركين في قولهم: أنك شبهت الصالحين والأولياء؛ مثل: عبد القادر والعيدروس والدسوقي بالأحجار والأشجار والأوثان، فكيف تشبه هؤلاء بهؤلاء؟!

فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ **هذا من وجهين:**

الوجه الأول: في هذه القاعدة أن العبرة بصرف العبادة لا بنوع المعبود، فمتىٰ ما صرفت العبادة لغير الله صارت شركًا، سواء صرفت لنبي مرسل أو ملك مقرب، أو رجل صالح، أو شجر، أو حجر، لذلك أمر الله ﷻ بقتال المشركين بجميع صورهم، ولم يفرق بينهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣].

الوجه الثاني: أن الله ﷻ عندما أرسل رسله، وأنزل كتبه، كان من مشركي العرب من يعبد الصالحين؛ مثل اللات، وهو رجل صالح، كان يلت السويق للحجاج، ويقربه إليهم، فلما مات بنوا في مكانه ما يعبدونه من دون الله ﷻ وقد كفَّرهم الله بذلك، كذلك النصارىٰ يعبدون عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويعتقدون أنه يقربهم إلىٰ الله ﷻ، ومع ذلك كفَّرهم الله ﷻ بقوله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة: ١٧]، كذلك اليهود كانوا يعبدون «عزيرًا»، وهو رجل صالح، ومع ذلك كفَّرهم الله ﷻ، وكذلك من مشركي العرب من كان يعبد الملائكة، ويقول: بنات الله ويتقربون بهم إلىٰ الله ﷻ، ومع ذلك كفرهم الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فالقاعدة تدل علىٰ أن النبي ﷺ أرسل إلىٰ أقوام مختلفين في عبادتهم،

منهم من يعبد الأحجار، ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الملائكة، وكلهم علىٰ اختلاف معبوداتهم كفرهم الله بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] ولم يستثنِ منهم أحدًا، فالعبرة بصرف العبادة لغير الله ﷻ.

وقد ذكر الشيخ في هذه القاعدة الثالثة حديث ذات أنواط، مبينًا أن من عبد شجر فقد اتخذ إلهًا مع الله، حيث إن النبي شبه طلبهم بطلب بني اسرائيل عندما قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ فدل هذا علىٰ أن قصد الأشجار والأحجار وغيرها، يُصيرها آلهةً تعبد.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهم من حديث الزهري عن سنان ابن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي الحديث: «أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**».

وقد أعل بعضهم هذا الحديث من جهة إسناده ومن جهة متنه.

أما من جهة الإسناد، فقالوا إن مداره على سنان أبن أبي سنان الدؤلي(١).

وقالوا إنه مجهول(٢).

---

(١) سنان بن أبي سنان الدؤلي -أو الديلي- تابعي، مدني من الطبقة الثالثة، قال في تقريب التهذيب: ثقة، مات سنة (١٠٥هـ).

انظر: تقريب التهذيب (١/ ٣٣٤)، ترجمة (٥٣٧).

(٢) ذكر علي بن عراق - صاحب كتاب تنزيه الشريعة- (٢/ ٢٦٣) حديث (من كانت في بيته =

وأما من جهة متنه[(١)]، فقالوا بنكارته فكيف يمر النبي ﷺ على مثل هذه السدرة ويتركها دون قطع؟

والصحيح: أن الحديث إسناده صحيح، ومتنه لا نكارة فيه.

أما سنان ابن أبي سنان فقد روى عنه الزهري وزيد بن أسلم، وهما إمامان

= شاة كانت في بيته بركة . .) الحديث، قال: (هو من حديث أبي هريرة فيه عمر بن داود عن سنان بن أبي سنان، وهما مجهولان، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال في ترجمة عمر بن داود، قال عمر بن داود عن سنان بن أبي سنان عن أبي هريرة مرفوعًا السواك يزيد الرجل فصاحة، قال العقيلي مجهول كشيخه والحديث منكر).

(١) ذكرت بعض روايات الحديث تفيد أنهم لم يمروا بهذه الشجرة بعينها، وإنما مروا بشجرة عظيمة ذكرتهم بها، ففي رواية للحديث عند أحمد: كان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة فقلنا . .».

وجاء أيضًا في بعض الروايات أن العرب إنما كانت تأتي هذه الشجرة يومًا واحدًا في السنة، ففي رواية ابن إسحاق: كانت كفار قريش، ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا، قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله؛ اجعل لنا ذات أنواط . .». وكذلك في رواية الواقدي في مغازيه.

وقال ابن عبد البر في (الدرر في اختصار المغازي والسير): وَفِي مخرجه هَذَا -يعني إلىٰ حنين- رأىٰ جهال الْأَعْرَاب شَجَرَة خضراء، وَكَانَ لَهُم فِي الْجَاهِلِيَّة شَجَرَة مَعْرُوفَة تسمىٰ ذَات أنواط، يخرج إِلَيْهَا الْكفَّار يَوْمًا مَعْلُومًا فِي السّنة يعظمونها، فَقَالُوا: يَا رَسُول اللَّه؛ اجْعَل لنا ذَات أنواط . .».

والمقصود أن المنكر الحاصل في هذه القصة ليس في عكوف قوم وإشراكهم عند هذه الشجرة بالفعل، وإنما كان في قول من قال: «اجعل لنا ذات أنواط . .». وهذا قد أنكره النبي ﷺ، وبيَّن ما فيه من الانحراف والخطأ.

فمثلهما لا يرويان إلا عن من هو مشهور معروف.

وسنان قد روى له مسلم في صحيحه محتجا به، وأخرج له البخاري مقرونا وقد وثقه النسائي ووثقه العجلي والذهبي ونقل ابن حجر أيضا توثيقه فهو ثقه وليس بمجهول(١).

وأما ما يتعلق بالمتن فليس فيه ما يستنكر وذلك أنه ليس في الحديث أنهم كانوا يشركون بهذه الشجرة حال مرور النبي ﷺ وإنما تذكروا حالهم في الجاهلية فطلبوا ذلك لما رأوا تلك الشجرة.

ولو سلمنا أنهم رأوا من ينوط بالسدرة فليس في الحديث أنه ﷺ تركهم ولم يقطع تلك السدرة فيحتمل أنه ﷺ قطعها ومنعهم، فعلى هذا نقول: الحديث صحيح ولا علة فيه.

فقد احتج بعضهم بهذا الحديث على مسألة العذر بالجهل في الشرك الأكبر، فقالوا أن هؤلاء الذين طلبوا ذات أنواط أنهم طلبوا الشرك ومع ذلك لم يكفرهم ﷺ لكونهم جهال، وهذا ليس بصحيح، فليس في الحديث ما يدل على ذلك فلم يفعلوا الشرك ولم يتلبسوا به.

بل غاية ما وقع منهم أنهم طلبوا مشابهة المشركين باتخاذ ذات أنواط يجعل الله فيها البركة، وتكون سببًا لتقويتهم وذلك كله من الله ﷻ، فأنكر عليهم النبي ﷺ هذا الطلب وبين أن طلبهم مشابه طلب بني إسرائيل، لأنهم

---

(١) قال أحمد بن عبد الله العجلي: مدني تابعي ثقة، وذكره ابن حبان في كتاب «الثقات»، قال يحيىٰ بن بكير: مات سنة خمس ومئة وسنه ثنتان وثمانون سنة. وروىٰ له البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي. تهذيب التهذيب (٤/ ٢٤٢).

أشركوا كما أشرك بنو إسرائيل[١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتم ويسمونها ذات أنواط قال بعض الناس: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط . . الحديث، فأنكر عليهم النبي ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها أسلحتهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم للمشركين أو هو الشرك بعينه . .)[٢] انتهى.

قال الشاطبي: (فإن اتخاذ ذات أنواط يشبه اتخاذ الآلهة من دون الله جل جلاله لأنه هو بنفسه فلذلك لا يلزم الاعتبار بالمنصوص عليه ما لم ينص عليه مثله من كل وجه والله أعلم)[٣].

فدل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والشاطبي على أن الصحابة لم يطلبوا الشرك ولا الكفر بل الذي أنكر عليهم هو مشابهة المشركين في طلبهم، بأن يجعل لهم ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

وأيضًا أنهم طلبوا ولم يفعلوا وطلبهم من المشرع الذي هو الرسول ﷺ من باب معرفة الحكم، فلما أنكر عليهم انتهوا.

هذه القواعد الثلاث من أهم ما يحتاجه المسلم في فهم المعتقد، وأن العبرة بصرف العبادة لا بنوع المعبود، وأن الأسماء لا تغير الحقائق، وأن

---

(١) قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور، فأخبرهم ﷺ أنَّ ذلك بمنزلة الشرك الصريح، وأنه بمنزلة طلب آلهةٍ غير الله تعالىٰ»، «الدر النضيد» للشوكاني: (٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ١٥٧).

(٣) الاعتصام الهلالي (٢/ ٧٥٢).

شرك العرب لم يكن في الربوبية، وإنما كان في الألوهية، وأنهم كانوا يعتقدون بأن الله هو الخالق الرزَّاق المدبر المحيي المميت، ومع ذلك كفرهم الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنهم صرفوا العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ ❁ ❁

• المتن •

القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة، والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، **تمت وصلىٰ الله وسلم علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم.**

• الشرح •

هذه القاعدة قاعدة متممة ومكملة لما سبق تقريره، أراد بها المؤلف رحمه الله تعالىٰ أن يبين أن مشركي العرب أفضل من مشركي زمانه من جهتين: من جهة الكم، ومن جهة الكيف.

أما من جهة الكم: فمشركو العرب كانوا يشركون في وقت الرخاء، أما في وقت الشدة فيوحدون الله ﷻ، أما المشركون اليوم فيشركون في الرخاء، ويعظم شركهم في الشدة.

وأما من جهة الكيف: فمن يعبد أحجارًا أو أشجارًا لا تعصي الله ﷻ أقل جرمًا من الذي يعبد أفجر خلق الله ﷻ.

يُذكر أن شمسان وأولاده ويوسف كانوا من الطواغيت[1]، وكانوا يدَّعون

---

(١) سئل سماحة الشيخ/ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله: من هو (شمسان، وإدريس، ويوسف) الطغاة الذين ذكرهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب عندما سُئل عن معنىٰ (لا إله إلا الله)؟ فأجاب: هؤلاء أسماء بعض الأموات الذين يُعظمهم المُشركون يحلفون بهم أو يذبحون لقبورهم أو يُصلون عندهم، ولا أذكر شيئًا عن تواريخهم، ويمكن أن يُرجع في ذلك إلىٰ كتب التاريخ. (موقع الشيخ رحمه الله).

علم الغيب، وكانوا فجرةً فسقةً، يأكلون أموال الناس بالباطل، ومع ذلك كانوا يعبدونهم من دون الله، ويُذكر أن البدوي كان من أفجر خلق الله كان لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي، وكان إذا صلىٰ يصلي بغير طهارة، وكان يبول علىٰ الناس ويتبرك الناس ببوله، نسأل الله العافية والسلامة، ومع ذلك يعتقدون فيه النفع والضر، ويُعبد من دون الله ﷻ.

فهذه القاعدة تبيِّن حال المشركين في زمن الشيخ، وأنهم أسوأ حالًا من مشركي العرب، وهذا يدل علىٰ عظم هذا الأمر، فلقد تغلغل الشرك في الأولين والآخرين، لذلك يلزم المسلم أن يخاف الشرك، وأن يسأل ربه أن يعصمه منه.

وبهذا نكون قد أنهينا القواعد الأربع، والله تعالىٰ أعلم وأحكم وصل اللهم وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.